آليات الإستراتيجية التضامنية ومسوّغات حضورها في خطاب المقدمات والبيانات وتجارب شعراء التفعيلة العراقيين

الباحثة بتول منعم فاضل محمد

الأستاذ الدكتور خالد محمد صالح

كلية التربية /جامعة ميسان / العراق

المستخلص

إن وجود العلاقة بين المرسل والمرسل إليه، أو عدمها، يعد من أهم العوامل التي توجه المرسل في تبني استراتيجية خطابية ملائمة للسياق، ولكن سياق التضامن يفرض على المرسل استخدام الاستراتيجية التضامنية؛ لأنها هي المتكفلة برسم طبيعة العلاقة بين طرفي الخطاب، فإن وجدت هذه العلاقة يسعى المرسل إلى إنهائها وتقويتها، وإن غابت فإنه يسعى إلى خلق هذه العلاقة اولاً، ومن ثم يعكف على تمتينها وتقويتها وصولاً إلى علاقة حتمية. فالمرسل يختار هذه الاستراتيجية، إن كان ينوي انشاء أو تقوية العلاقة بينه وبين المخاطب، ويسعى بفضلها إلى تقوية أواصر القربى بينه وبين المتلقي، من خلال تعبيره عن تقديره إلى المرسل إليه، واحترامه، وإعطائه مكانه لائقة، وللعلاقة أيضاً بما يجعله واثقاً بأن المرسل يميل إليه ميلاً طبيعياً خالياً من أي دوافع أو أغراض منفعية، وغرضه التأدب والتخلق في الخطاب.

الكلمات المفتاحية: الاستراتيجية التضامنية ، مسوغات الحضور، شعراء التفعيلة

The mechanisms of the solidarity strategy and the justifications for its presence in the discourse of introductions, statements, and the experiences of Iraqi ta'feel poets

Researcher: Batoul Moneim Fadel Muhammad

Professor Dr. Khaled Mohamed

Abstract

The presence or absence of the relationship between the sender and the addressee is one of the most important factors that guide the sender in adopting a discursive strategy appropriate to the context, but the context of solidarity requires the sender to use the solidarity strategy; Because it is the one responsible for drawing the nature of the relationship between the two parties to the discourse. If this relationship exists, the sender seeks to end and strengthen it, and if it is absent, he seeks to create this relationship first, and then works on strengthening and strengthening it, leading to an inevitable relationship. The sender chooses this strategy, if he intends to establish or strengthen the relationship between him and the addressee, and thanks to it seeks to strengthen the bonds of kinship between him and the recipient, by expressing his appreciation to the addressee, and respect

Keywords: solidarity strategy, justifications for attendance, ta'feela poets

المقدمة:

فإتيان المتكلم بفعل القول على وجه يعين دلالته القريبة، ويجعل النفع من ورائه متحصلاً، هو التأدب[١]؛ فالمتكلم يتعامل بحرص مع المخاطب؛ حتى يحافظ على التواصل، جالبا أقصى ما يمكن من المنفعة لنفسه ولمخاطبه؛ طمعاً في أن يبادله الحرص نفسه، على التواصل، وعلى الوصول إلى المنفعة المشتركة. وبهذا يكون الداعي إلى التأدب في الكلام، وقضاء المصالح وإنجاز الأفعال، موجوداً بوجود التواصل والمنفعة، ومنعدماً بانعدامهما. أما(التبجيل)، فهو ما يطلق عليه باستراتيجية الاحترام والتخلّق، ويختلط مفهومه بمفهوم الاستراتيجية التضامنية، كونها تجسد درجة من التضامن ضعيفة؛ لأنها تميل إلى المحافظة على التعامل الحيادي، وحفظ حقوق المرسل إليه أكثر من ميلها إلى غيره، فهي ليست الاستراتيجية التي تتبع طموح المرسل لتحقيق التضامن بالدرجة التي يرغبها[2].

اولا: ـ مسوّغات التضامن وعلاقته باستراتيجيات الخطاب

قد تقتضي الدواعي التبجيليّة النظر إلى المصالح والأهداف النفعية نظرة معتبرة، وقد استقصى أحد الباحثين أمثلة عديدة، ليتأكد له أن التبجيل يحتوي تضامناً قوياً يكفل حقوق المتخاطبين جميعا[٣]، فيتخذ هذا الأمر الأولوية على النظر إلى التعامل الأخلاقي بالخطاب. أي أن ما يحدد الاستراتيجية التضامنية هو أولوية التعامل الأخلاقي، يقول طه عبد الرحمن: " ولما ثبت أن التخلق يدعو المتكلم إلى الخروج عن الأغراض والغَناء (بفتح الغين) عن الأعواض، فقد لزم أن يكون الباعث عليه تحقيق مزيد الإنسانية للمتكلم، إذ لا إنسانية بدون أن يزيد اعتبار الغير على اعتبار الذات، بحيث لا تصح نسبتها إلى المتكلم حتى يزيد أنس المخاطب به، ولا يحصل للمخاطب هذا الأنس المطلوب حتى يشعر بأن المتكلم قد تخلص في أقواله وأفعاله مما يقصر نفعه على نفسه ولا يتعداه إلى غيره، علما بأنه لا شيء أقصر نفعا من الأغراض والأعواض "[٤]. إن طه عبد الرحمن يرى أن التضامن خليق بتحقيق مرتبة (التبادل)، الذي يحققه مبدأ (التأدب)، الذي ينجرّ عنه تحقيق (التفاعل) عن طريق مبدأ (التخلّق)؛ أي أن المتكلم والمتلقي يدفع كلّ منهما إلى السعي لجلب منافع عامة، أو دفع مضار عامة من غير طلب مقابل. فلا إنسانية ولا تضامن من غير الاهتمام بالغير قبل الاهتمام بالذات.

وتتمثل الاستراتيجية التّضامنية في الدراسات اللسانية، في وظيفتين من وظائف اللغة المختلفة، أحدهما: الوظيفة الإفهامية التي، " تهدف إلى إقامة التواصل والحفاظ عليه، وتدخل في هذا الإطار عبارات المجاملة، والأسئلة عن الصحة والطقس، والتحية، والسلام"[٥]. وهنا يمكن تبيّن إن الاستراتيجية التّضامنية، والوظيفة الإفهامية للّغة تشتركان في أن كل واحدة منهما تهدف إلى تحقيق التواصل الاجتماعي، والإبقاء عليه. أما الوظيفة اللغوية الأخرى التي

تتمثلها الاستراتيجية التضامنية، فهي : الوظيفة الانتباهية للغة، التي هدفها الأساس إقامة التواصل ابتداء، فيكون التضامن المدخل الرئيس إليه –أي الهدف– وتقوم الوظيفة الانتباهية على القناة أو(الصلة)[٦] ، حسب جاكوبسون، " إذ تهدف هذه الوظيفة إلى إقامة الاتصال بين المتحاورين أو إيقافه، مستعملةً لهذا الغرض تعابير وأساليب متداولة في الحياة اليومية مشتركة بين أفراد المجتمع، وهي عادة ما تتكون من كلمات ومفردات قبلية جاهزة تتوافر على وظائف تواصلية معروفة، من قبيل عبارات المجاملة والمسامرة والأدب والتحية والأسئلة"[٧]، وهذه العبارات الجاهزة هي أول ما يستخدمه المرسل، إن فرض المقام، والسياق عليه اتخاذ الإستراتيجية التضامنية استراتيجية خطابية. وتعد التحية من أبسط أشكال استخدام هذه الاستراتيجية من قبل المرسل، فهي تضامن مبدئي يستخدمه المرسل اتجاه المتلقي، وكذا السؤال عن أحواله والاطمئنان على صحته، وهذا التضامن يحدث بين المتعارفين، كما يحدث بين غير المتعارفين. وإلقاء التحية يكون لمجرد الإلقاء، كما يكون تمهيدا لحديث بعده، وفي الحالتين كلتيهما ينمّ عن تقدير المرسل للمتلقي، واعطائه مكانة مميزة، وهذا يرسى قواعد طيبه لإقامة علاقة حسنة.

وتُلتمس الاستراتيجية التضامنية، في الدرس اللساني، عند الحديث عن وظائف، منها الوظيفة الإنجازية؛ كونها تكتسب مادتها من اللغة الطبيعية المستعملة في الحياة اليومية (الخطاب)، لغرض التعبير عن المقاصد وتحقيق الأهداف، كما تربط هذه الاستراتيجية بالوظيفتين التعاملية والتفاعلية؛ لكونهما وظيفتين تهتمان أساساً باللغة في سياق استعمالها، كما يقول (براون ويول)؛ فالوظيفة التعاملية هي اللغة المستعملة لنقل المعلومات المتعلقة بالوقائع والأقوال، أما الوظيفة التفاعلية فهي تنهض بإقامة العلاقات الاجتماعية وتمتينها[٨].

يؤثر في المرسل، من حيث علاقته مع غيره، عاملان لاختيار الاستراتيجية التضامنية، وهذان العاملان هما، الأول: العلاقة السابقة بينه وبين المرسل إليه، وقد تتدرج هذه العلاقة من الحميمية إلى الانعدام التام، يسعى المرسل في هذه الحالة إلى تعويضها من خلال استحضارها في الخطاب. والعامل الآخر: السلطة، التي قد يمتلكها أحد طرفي الخطاب، فيعلو على الطرف الآخر درجة، وقد لا يمتلكها أي منهما، فتتساوى درجتهما[٩]، أو عندما لا يربطهما أي علاقة قد يفضل المرسل أن يتعامل مع المرسل إليه بخطاب يؤكد رغبته في إبقاء الفرق بينهما، وهذه الرغبة ليست على إطلاقها فقد لا يرغب المرسل ببقاء الفرق بينه وبين المرسل، بالرغم من حضور السلطة في التضامن. والسلطة المقصودة هنا، هي السلطة في مفهومها العام سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو دينية أو غير ذلك. ويرى بعض الباحثين أن جدوى السلطة مرهون بالقدرة في التأثير، وهي تأخذ طابع شرعيا في إطار الحياة الاجتماعية. كما أن السلطة هي القوة الطبيعية، أو الحق الشرعي في التصرف أو إصدار الأوامر في مجتمع معين، ويرتبط هذا الشكل من القوة بمركز اجتماعي يقبل به أعضاء المجتمع بوصفة شرعية، فيخضعون لتوجيهاته وأوامره وقراراته[١٠]، و(التأثيرية) من أهم سمات هذه السلطة؛ أي أن صاحب السلطة له القدرة على التأثير في الأقل منه

سلطة، كما أن من سماتها (الشرعية)؛ بمعنى المقبولية بين الأطراف الاجتماعية المختلفة بسبب المركز الاجتماعي لصاحب السلطة، ولا يخرج البعد السلطوي أثناء حالات التواصل في السياقات المختلفة عن واحدة من الحالات الآتية :الأولى: كون المرسل أعلى سلطة من المتلقي، والثانية: كون المرسل أدنى سلطة من المتلقي، والثالثة: كونهما متكافئين(١١)

وقد يسعى المرسل إلى استخدام الاستراتيجية التضامنية كونه أدنى منزلة من المتلقي، ولضعف مركزه يضطر إلى إظهار الاحترام والتقدير والتبجيل للمتلقي، فيستخدم الاستراتيجية التضامنية رغبة في رفع الكلفة، وزيادة التلقائية في التعامل والتخاطب، إذا رأى المرسل من المتلقي تقبلاً لذلك، أو سمحت دواعي السياق والمقام باستخدامها من دون حرج، وقد ذكرت هذه الاستراتيجية تداولياً تحت مسمى استراتيجية التأدب في العديد من الدراسات العربية الحديثة(١٢).

أما الحالة الثالثة فهي كون كل من المرسل والمتلقي في منزلة واحدة سلطوياً، وهذا هو الغالب الأعم المنتشر بين الفئات الاجتماعية المختلفة، والتي تكون متجانسة لأسباب اجتماعية أو مهنية أو ثقافية أو غيرها، وفي هذه الحالة ليس هناك فرق بين أفراد هذه الفئات في استخدام الاستراتيجية التضامنية، التي تأتي تلبية للحاجات النفسية الاجتماعية المختلفة للمتواصلين.

نجد هذا الاستراتيجية حاضرة في مقدمة ديوان (أساطير) للسياب، من خلال استعماله بعض الوسائل اللغوية والنفسية التي من شأنها ان تقربه من المتلقي؛ كي يتعاطف معه، وليخلق جوا من الانسجام والتضامن في استمالة أحاسيس القارئ وعواطفه، متحدثا عن حياته الخاصة: "فقدت أمي وما زلت طفلاً صغيراً، فنشأت محروماً من عطف المرأة وحنانها. وكانت حياتي، وما تزال كلها، بحثاً عمن تسد هذا الفراغ، وكان عمري انتظارا للمرأة المنشودة، وكان حلمي في الحياة أن يكون لي بيت أجد فيه الراحة والطمأنينة، وكنت أشعر أنني لن أعيش طويلاً، لهذا وجب على القارئ أن يربط بين (رئة تتمزق) وكثير من قصائد الديوان"(١٣)

يبدو السياب في مستوى واحد مع متلقيه، حين يعلن شعره انعكاساً لتلك الصور الموجودة في المجتمع المكتنز بالكثير من الآمال والمشاعر والاحاسيس، التي لابد له من ان يظهرها؛ كي يلقي القبول والتلقي من قارئه، وليجذبه لهُ، وهذا ما يؤكده السياب بوصفه مرسلاً في موضع آخر تال لما سبق ذكره في الديوان، فهو يؤكد للمخاطب: " والشاعر إذا كان صادقا في التعبير عن الحياة في كل نواحيها، فلا بد من أن يعبر عن آلام المجتمع وآماله دون أن يدفعه أحد إلى هذا. كما أنه من الناحية الأخرى يعبّر عن آلامه هو وأحاسيسه الخاصة التي هي في أعمق أغوارها أحاسيس الأكثرية من أفراد هذا المجتمع (١٤)".

وقد ورد في بيانات شعراء التفعيلة العراقيين مواقف خطابية كثيرة من هذا النوع، منها ما جاء في بيان الشاعر عبد الوهاب البياتي (إعادة نظر واجبة) في قوله: "صيادو الذباب، لقد تعبنا منهم، فمن لنا بإحراقهم وإحراق ذبابهم، وتلفت صاحبي إلى الشارع المزدحم كالمذعور وفر هاربا، ليتركني وحدي وجها لوجه مع أحد صيادي الذباب. وما كان يقصد صاحبي بعبارته هذه، ألا هؤلاء الشعراء المساكين الذين لا يزالون يجلسون مزجر الكلب من مائدة "الشنفري" أو "البحتري" أو "الحارث بن حلزة" وعيونهم جاحظة ولعابهم يسيل، ولا يزالون يتصيدون أوزانهم وقوافيهم، لينالوا إعجاب بائع باذنجان خائب أو حبيبة وهمية أو ممدوح عاهر بطين، في عصر مليء بالبطولات والانقلابات والثورات"(١٥). فلقد كان البياتي تضامنيا، من حيث اندراج خطابه بين الأقران المتشابهين في الحالات أو الوضعيات الاجتماعية، ويعد استعمال الضمير(نا) في (تعبنا منهم، من لنا)، تمثيلاً واضحاً للتضامن، فهو ضمير جعل المتحاورين المختلفين مجموعة واحدة متجانسة، وقد استعمله المرسل/البياتي لغرض تداولي تضامني أشعر المتلقين أن المرسل متضامن معهم، حيث لا سلطة واضحة تؤكد التراتبية، إذ كان الخطاب التضامني غير محكوم بقيود ترجع في كثير من الأحيان إلى التباين السلطوي أو التمايز الاجتماعي.

وينتقي المرسل/نازك الملائكة الاستراتيجية التضامنية بوصفها طريقة لإبلاغ خطابه إلى المرسل إليه، وبما أن الاستراتيجية التضامنية في مجملها تهدف إلى تأسيس العلاقات الاجتماعية وتطويرها وتنميتها، فهي تعتمد على قواعد ومبادئ تحقق هذا القرب، وأهم هذه المبادئ مبدأ التأدب، الذي يساهم في بناء التخاطب، ومن مظاهر التأدب، تأنيب الذات المتكلمة لذاتها، وتحسّرها، كما تفعل نازك الملائكة في مقدمة ديوان شظايا ورماد، في قولها:" فنحن عموما ما زلنا أسرى، تسيّرنا القواعد التي وضعها أسلافنا في الجاهلية وصدر الإسلام. ما زلنا نلهث في قصائدنا، ونجر عواطفنا المقيدة بسلاسل الأوزان القديمة، وقرقعة الألفاظ الميتة، وسدى يحاول أفراد منا أن يخالفوا"(١٦). فمن الواضح أن المرسل يتضامن مع المرسل إليه، عن طريق تأنيب ذاته أو إظهار التحسر من خلال الخطاب الملقى، عبر مفردات تحيل إلى التذمر من جانب، كما أنها تظهر تأنيبا للذات، كـ: (مازلنا أسرى، تسيرنا القواعد، نلهث، عواطفنا المقيدة، سلاسل الأوزان، قرقعة، الميتة، سدى). ولكن اللجوء لهذه الاستراتيجية لا يعني إفراط المرسل في الانتقاص من ذاته، بل إن استعمالها يجسّد التضامن من خلال إظهار التعاطف مع المرسل إليه، وإنجاز المقصود من ورائها، وهو إنجاز كلامي يتمثل في إحالة الخطاب الذاتي، أو ما يظهر على أنه تذمر فردي، إلى خطاب شامل، ليتسع باتجاه المتلقين جميعهم، كسبا لتضامنهم، وتحقيقا لإنجاز الخطاب. إذ " يتضمن صنف التذمر من الذات تلك الشكاوى التي ينتقص المرسل نفسه بالشكوى من قدرته، أو سلوكه أو أفعاله، أو مظهره الجسدي، ولا يتضمن هذا المحور الشكوى من السياق الذي هو فيه"(١٧).

وتعمد نازك الملائكة إلى الإفادة من تأنيب الذات والتحسّر والتذمر، بوصفها تأدبا يحيل إلى تضامن، لينجز أهدافه في تبليغ الخطاب، وضمان الإقناع به، تقول في موضع آخر من المقدمة نفسها: "منذ قرون ونحن نصف انفعالاتنا بهذا الأسلوب حتى لم يعد له طعم ولا لون. لقد سارت الحياة، وتقلبت عليها الصور والألوان والأحاسيس ومع ذلك ما زال شعرنا صورة لـ "قفا نبك" و "بانت سعاد" الأوزان هي هي.. والقوافي هي هي.. وتكاد المعاني تكون هي هي."[١٨] ولا تكتفي نازك هنا باستعمال تأنيب الذات لإظهار التضامن، بل تتخذ من الكشف عن أغوار الذات وسيلة تدلّ بها على القرب من المرسل إليه، حتى يغدو كشف الذات عنصراً فاعلاً من عناصر التضامن، حين يذهب المرسل بالكشف عن خصوصياته، وإطلاع المرسل إليه على مكنوناته، محققا مبدأ المصارحة والصدق بوصفهما مبدأين من مبادئ التأدب، مع المرسل، كما يتحقق التضامن مع المرسل إليه، بما يحمله المرسل من الثقة في المرسل إليه بإيداعه هواجسه، وإطلاعه على ماتنطوي عليه ذاته، وهذا يظهر بجلاء في قول السياب في تقديمه لمختارات من الشعر العالمي: "نحن نعيش عالما لا شعر فيه... وراحت الأشياء التي كان في وسع الشاعر أن يقولها، تتحطم واحدا فواحدا، أو تنسحب إلى هامش الحياة...فماذا يفعل الشاعر إذن؟ عاد إلى الأساطير"[١٩]. إن ما حمل السياب على الاستعانة بتأنيب ذاته، واستعمال التأدب في التضامن مع المرسل إليه، عبر الكشف عن أن مهمته بوصفه شاعراً، عسيرة، مادام يرى في داخله أن ما سيقوله سيكون حطاماً، وهو مؤول إلى التحطيم قبل أن تدخل وسعه بوصفه شاعرا، ما حمل السياب على هذا كله هو سعيه إلى إنجاز خطابه، المتمثل بإقناع المرسل إليه بحتمية العودة إلى الأساطير لتحقيق شعرية قصيدة التفعيلة، التي يبشر بها المرسل، وقد جاء هذا صريحا في آخر مقولته السابقة: (فماذا يفعل الشاعر إذن؟ عاد إلى الأساطير.)

وفي ما قاله البياتي في تجربته الشعرية : "ومثل مدينتنا الشبيهة بالمهرج، كان جيلنا المتسول الذي استعار ثيابا وأزياء من كل عصر حتى فقد شخصيته وصوته الحقيقي"[٢٠] يتمثل التضامن عبر التأدب في تأنيب الذات، فما تظهره التشبيهات والصفات والاستعارات المكتنزة في مقولته، وفي أجزاء كثيرة من المدونة التي حملت وصف تجربته الشعرية، يعكس تذمراً واضحاً من الذات، ويشكل انتقاصا وشكا بقدرة المرسل أو سلوكه أو أفعاله، ليحقق ضربا من ضروب التضامن مع المرسل إليه، على وفق ما اقتضاه مقام الخطاب، في إظهار التحسّر، والدعوة إلى التمرد على ما هو قائم.

لقد عكست النصوص السابقة مقدمات دواوين، أو بيانات شعرية، أو تجارب تحلي المرسل بوصفه أحد طرفي الخطاب بالتأدب من أجل تسهيل عملية التواصل وتحقيق الغاية التي من أجلها أنشأ الخطاب. ومما سبق نجد أن هذا الموقف الخطابي بما يحتويه من مفردات وتراكيب يبين بشكل واضح أثر طبيعة العلاقة بين المتواصلين في تحديد استراتيجيتهم الخطابية، وانتقاء ما يناسبها من أدوات وآليات، وغالبا ما يتم انتقاء استراتيجية التخاطب المناسبة بناء

على هذا المعيار أو العنصر؛ إذ يتحكم أشد التحكم وخاصة في الاستراتيجية التضامنية، فالاختلاف بين المتخاطبين يَحْدُ من استخدام هذه الاستراتيجية إلى حد ما، مما يستوجب تعويضها باستراتيجية أنسب للمقام، ويزيد الاتفاق بين المرسل والمرسل إليه من نسبة التضامن؛ لأن الاشتراك في جوانب عدة من الحياة بين المتخاطبين يفضي إلى تشكيل مساحة اتفاق بينهما، في عدة أشياء كالمنطلقات والآراء والأهداف والغايات، وهذا ما نجده بين الفئات الاجتماعية المتساوية أو المتقاربة.

ثانيا: ـ قواعد الاستراتيجية التضامنية والعناصر المتحكّمة فيها

يشير عبد الهادي بن ظافر الشهري إلى أن الباحثين الغربيين قد التفتوا إلى دراسة هذه الاستراتيجية منذ ستينيات القرن الماضي، دراسة أدركوا فيها أهمية اللغة في الخطاب التعاملي[٢١]، إذ ذهب(جورج يول) إلى أن النزوع إلى استخدام صيغ التهذيب الايجابية التي تؤكّد على التقارب بين المتكلم والسامع، يحقق استراتيجية التآزر، التي تنطوي على التماس هدف مشترك، باستعمال صيغ التهذيب[٢٢].

والظاهر من آراء (جورج يول) أن استراتيجية التضامن تعكس علاقة المرسل بالمتلقي، فهي استراتيجية منتقاة بهدف إحداث نوع من التقارب بين المتخاطبين، وارتباط الاستراتيجية التضامنية بالعلاقات التخاطبية دفع بعض الباحثين إلى اعتبار مفهومها مفهوما معقداً، إذ ليس من اليسير كشف حقيقة العلاقات التخاطبية بين الناس، ومع هذا، فإنه يمكن، حسب إدريس مقبول، " الحدس بمفهوم الاستراتيجية التضامنية تقريبا بأنّها الاستراتيجية التي يحاول المرسل أن يجسّد فيها درجة علاقته بالمرسل إليه ونوعها، وأن يعبر عن مدى احترامه لها، ورغبته في المحافظة عليها، أو تطويرها بإزالة معالم الفروق بينهما، محاولة التقرب من المرسل إليه وتقريبه."[٢٣]

وتأتي الطرفة أو النادرة آلية من آليات التضامن المصنفة على أنها من استراتيجيات التأدب الايجابي عند (براون وليفنسون)[٢٤] ، فالطُّرفة تقوم على معرفة خلفية مشتركة، و على القيم والمبادئ، التي تجمع المرسل بالمرسل إليه، ولهذا يمكن استعمال هذه الآلية لتثبت تلك الخلفية، أو تحقيق القيم المشتركة، وقد يجد المتأمل في مقدمة شظايا ورماد جنوح المرسل/الملائكة إلى الإستفادة من الطرفة، لتحقيق التضامن، تقول: " وقد لاحظت خلال دراستي للآداب المعاصرة هذه الملاحظة الطريفة: لاحظت أننا، في هذا العصر، قد أصبحنا ننسى المدلول الخاص لكلمة (البدر) فنهملها إهمالاً يكاد يكون كلياً، ونؤثر عليها لفظ (القمر)، وقلَّ في الشعراء المعاصرين من يرضى استعمال كلمة (بدر)، إلا في الحالات النادرة، وأنا أعترف أنني أكلف نفسي أحيانا متاعب كثيرة ،لكي لا أستعملها، والتعليل السيكولوجي لهذا يسير، فأنا وسواي نتذكر بلا شك تلك العشرات من الأبيات الصماء النافرة التي تركها شعراء

العصر المنطفئ والماضي، واستعملوا فيها كلمة (بدر) حتى جردوها من جمال معناها، وأطفأوها، وأبقوا منها ظلالهم هم عليها."[٢٥]

إن الظاهر في هذا النص أن المرسل يتجاوز عند التلفظ بالطرفة مجرد دورها في التسلية، إلى بعد أهم، هو التقارب بينه وبين المرسل إليه، ولعل هذا هو القصد الأهم عنده، فاستعمال الطرفة في السياق الوارد في نص الملائكة يعطى انطباعا برغبة المرسل في التضامن، ويريح المرسل إليه بإزالة الفوارق، التي قد تنجم عن شعور المرسل إليه بقوة السلطة المعرفية التي تنطلق منها الملائكة بوصفها مرسلاً، في تأسيس نظريتها الخاصة بشعر التفعيلة، وشعور المرسل إليه بانعدام الفوارق، يولد عنده تلاشي الخشية ، وهذا ما يحقق التضامن، ويبلور التأدب، ويخلق استراتيجية تضامنية، بوساطة الطرفة أثناء الخطاب. وربما جاءت الرغبة في إزالة معالم الفروق بين المرسل والمرسل إليه لتترجم رغبة المرسل في التنازل عن سلطته، ويتضمن قول الملائكة: (وأنا أعترف أنني أكلف نفسي أحيانا متاعب كثيرة لكي لا أستعملها) ؛ تطمينا للمرسل إليه، في أنه في الرتبة نفسها التي يتنزل فيها المرسل، ممّا يدعم البعد التضامني، ويمهّد بقوة لتبليغ المقاصد بنجاح؛ لأنّ حقيقة الكلام باعتباره خطابا تواصليا ينبني على قصدين اثنين: أحدهما يتعلق بالتوجه إلى الغير بقولها: (وقد لاحظت خلال دراستي للآداب المعاصرة هذه الملاحظة الطريفة) ، والثاني يتصل بإفهام هذا الغير، بقولها: (فأنا وسواي نتذكر بلا شك تلك العشرات من الأبيات الصماء النافرة التي تركها شعراء العصر المنطفئ والماضي، واستعملوا فيها كلمة (بدر) حتى جردوها من جمال معناها، وأطفأوها) ، وحتى يتحقق القصد لا بد من انتقاء الاستراتيجية التخاطبية المناسبة من أجل نجاح التوجه إلى الغير، فكانت هنا الاستراتيجية التضامنية.

ولكن الخطابات ليست ظاهرة الدلالات، ومتحصلة المعاني دائما، فربما انطوى الخطاب على معنى غير مباشر، انطواءه على معنى مباشر. وتعنى ظاهرة الاستلزام الحواري بالمعاني غير المباشرة في الخطاب، وفي تأمله جملة من اللغات الطبيعية، توصل (بول غرايس) إلى نتيجة مفادها أن بعض الخطابات تدل على معنى يخالف محتواها القضوي حين تستعمل في مقامات مخصوصة ؛ ومردّ ذلك أنّ العبارات المتلفظ بها تحمل أكثر من دلالة باعتبار السياق من جهة، وباعتبار العلاقة التخاطبية التي تربط بين المتخاطبين من جهة أخرى[٢٦]؛ فقد لاحظ (غرايس) أن تأمّل الحمولة الدلالية لإجابات المتحاورين تدل في الغالب على معنيين اثنين: معنى حرفي ومعنى استلزامي، وهذه الظاهرة سمّاها الاستلزام الحواري. إن نقطة الانطلاق عند (غرايس) تكمن في أن الناس في حواراتهم قد يقولون ما يقصدون، وقد يقصدون أكثر مما يقولون، وقد يقصدون عكس ما يقولون، فجعل اهتمامه منصبا على إيضاح الاختلاف بين ما يقال وما يقصد. فما يقال هو ما تعنيه الكلمات والعبارات بقيمها اللفظية، وما يقصد هو ما يريد المتكلم أن يبلغه للسامع على نحو غير مباشر[٢٧]. وانطلاقا من المعاني الصريحة، والمعاني المتضمنة في القول

نشأت عند (غرايس) فكرة الاستلزام، ولشرح هذه الفكرة وضع نظريته التي تنصّ على أن التواصل الكلامي محكوم بمبدأ عام، مبدأ التعاون، وبمسلمات حوارية[٢٨].

وقد ورد نصّ هذا المبدأ في دروسه الموسومة بعنوان (محاضرات في التخاطب)، وفي مقاله الشهير المعنون بـ (المنطق والتخاطب)، وقد تفرّع هذا المبدأ إلى قواعد تخاطبية مختلفة، قسمها إلى أربعة أقسام يندرج تحت كل قسم منها تحت مقولة مخصوصة، والأقسام هي: الكمَّ، والكيف، والإضافة أو العلاقة، والجهة، وينصّ كل قسم على مبدأ الكم، الذي تلخصه مقولة: اجعل إسهامك في الحوار على القدر المطلوب، من دون أن تزيد عليه أو تنقص منه، ومبدأ الكيف، الذي تلخصه مقولة: لا تقل ما تعتقد أنه غير صحيح، ولا تقل ما ليس عندك دليل عليه، ومبدأ المناسبة الذي تلخصه مقولة: اجعل كلامك ذا علاقة مناسبة بالموضوع، ومبدأ الطريقة، الذي تلخصه مقولة: كن واضحاً ومحددا، فتجنب الغموض، وتجنب اللبس، وأوجز، ورتب كلامك. هذه المبادئ – بحسب غرايس– يمكن أن يتحقق بها التعاون بين المتكلم والمخاطب تحقيقا يصلان فيه إلى حوار مثمر متضح المقاصد، وقواعد المحادثة التي ذكرها غرايس، هي مبادئ تأويل أكثر من كونها قواعد معياريّة أو قواعد سلوك، حيث إنها لا تتوقّف عند القدرة على اكتساب حالات ذهنيّة، بل تتجاوز ذلك إلى القدرة على إدراك مقاصد في حالات أخرى، خصوصا عندما يتم خرق مبدإ من مبادئ التّعاون[٢٩].

ثالثا: مكوّنات الاستراتيجية التضامنية بين اللغوية وغيرها

يرد الاستلزام الحواري في المقدمات الشعرية والبيانات والتجارب ورودا كثيرا ومتنوعا، ومنها ما يحمله الاستفهام المجازي من قوة إنجازية حرفية، وقوة إنجازية مستلزمة، تقول نازك الملائكة في الحوار الذي جعلته مقدمة ديوانها (قرارة الموجة):

"الثانية:... وبعد، فإن عنوانك العتيد (قرارة الموجة) لا يمثل القصائد كلها. إن في هذه المجموعة قصائد لاتقع تحت هذه الفلسفة.

الأولى: هذا حقٌ. وأنت المسؤولة. لقد حذفت نصف قصائد هذا الديوان. أنكري هذا.

الثانية: أني لا أنكر، هذه القصائد لم تعد تروقني وقد حذفتها

(...)

الأولى: (كأنها لا تصغي) حقا ماذا أبقيت من (قرارة الموجة)؟

الثانية: يكفي ما أبقيت منه. إن القارئ سيألف الفلسفة. ألا يكفي أنك ملأت بها (لعنة الزمن) و (الشخص الثاني) و (سخرية الرماد) و(يحكى أن حفارين) و(صلاة الأشباح)؟ بل ألا تكفيك قصيدة (طريق العودة) هذه القصيدة التي تولعين بها؟"[٣٠]

فالفعل الكلامي (ألا يكفي) المكون من الجملة الفعلية، يحمل القضية المتمثلة في إصرار الشاعرة على الحذف، من خلال الحوار بين الثانية والأولى. ولأن الشاعرة مصرة على الحذف، كان الاستلزام المنطقي أن تحمل الثانية رسالة إليها على وجه الإنكار؛ لعلها تنتبه وتتعظ. وعلى هذا الأساس كانت الحمولة الدلالية لذلك الفعل تتكون من قوة إنجازية حرفية وهي الاستفهام، وقوة إنجازية مستلزمة وهي المقصودة من الكلام، وتتمثل في الإنكار والتقريع؛ وفي التعجب من أمر الشاعرة، وهي قوة إنجازية مستلزمة تحمل معنى رد نصيحة من لا يطلب عليها أجرا.

وفي (رسالة إلى الشاعر العربي الناشئ) حوار يقيمه المرسل/الملائكة بينه وبين الشاعر الناشئ، وبين هذا الأخير وآخر يتبنى وجهة مخالفة لما يذهب إليه المرسل، تقول: "ولا أظنك الا سائلاً عن الشعر الحر وما تتخذه من موقف ازاءه، فاعلم أن هذا الشعر ليس الا أسلوباً استحدثناه في رصف أجزاء ثمانية من أوزاننا العربية، فهر يرتكز إلى التفعيلات العربية والى الشطر وقوائم التدوير والزحاف والعلل والضروب والوقف وسواها مما تجد في عروضنا. ومن زعم لك أن هذا الشعر ليس موزونا فهو لا يخلو أن يكون أحد إثنين: أما جاهل بالعروض العربي، وأما واهم لا يميز بين الشعر الحر الموزون والنثر المسمى خطا بـ (قصيدة النثر)، وفي الحالتين تستطيع أن تفحم هذا الزعم بمجرد أن تتناول قلما وورقة وتقطع الشعر الحر الى التفاعيل العربية الدارجة على طريقتنا المعروفة."[٣١]

يتراءى لنا في قول المرسل/ الملائكة في حواره مع الشاعر العربي الناشئ: ما الشعر الحر؟ وما تتخذه من موقف ازاءه؟ ما أُفترض في الحوار في أنّهُ ليس بشعر، لمخالفته قواعد عمود الشعر، وعدم الالتزام بطريقة الخليل في العروض؛ لقول من يزعم، وجوابه للمرسل/الملائكة: أن هذا الشعر ليس موزونا، بقول المرسل: إن الزاعم لا يخلو أن يكون أحد إثنين : أما جاهل بالعروض العربي ، وأما واهم، وهذا تقرير للواقع أنّ الشاعر العربي الناشئ مؤمن بحقيقة قول المرسل، ولكن هذا لا يتعارض مع تجرده الافتراضي من أن الشعر الحر غير موزون، بدليل قول المرسل: في الحالتين تستطيع أن تفحم هذا الزعم، فيزداد بصيرةً ويقينا، فالاقتضاء التخاطبي هو الذي استدعى توظيف هذا الجواب، في هذا المقام على وفق قواعد، يستلزمه الحوار هنا وهذا، ما يُسمى بـ(الاستدلالات التداولية)[٣٢] ، التي تنصُّ على أنّ المخاطِب هو الذي يتواصل عن طريق الاقتضاءات، وأنّ المخاطَب هو الذي يشخص تلك المعاني الموصلة عن طريق افتراضات متعددة. إن الاستلزام الحواري نظرية حاول من خلالها الباحثون في مجال اللسانيات التداولية أن يضعوا مجموعة من قوانين التخاطب، لعلّها تتمكن من حصر مقاصد المتحاورين، وتمنعهم من

الاختفاء وراء كلماتهم، وهو مطلب في غاية الأهمية لنجاح التواصل الإنساني في عصر أصبحت اللغة فيه تشكل أكبر رهان.

إنّ العلاقة بين المتخاطبين لها دور أساس في مراعاة قواعد الخطاب أو خرقها، لاسيما أنَ هذه القواعد ترتبط ارتباطا وطيداً بالملفوظية، وما طرح حولها من إشكاليات متعددة، على اعتبار أن الملفوظ رهين التواصل الشفوي، ولا بد عندها من مراعاة نبرات الكلام والإيماءات والحركات وأشكال التعبير المرتبطة تماما بالتعبير الكلامي بمعناه الحقيقي. إن العلاقات التخاطبية هي المؤشر على وجود استراتيجية التضامن أو انعدامها، بينما تكون نبرات الكلام والإيماءات دلائل ملموسة على مدى شْدّة التضامن أو ضعفه أو فتوره. من هذا المنطلق كان الشاعر شديد الحرص على مراعاة قواعد التخاطب وهو يحاور قارئه بدءا بمبدأ التعاون الذي يتجلى أكثر من خلال قاعدتي الكيف والمناسبة؛ فلم يقل إلا الصدق، كما يتجلى في مقدمة ديوان أساطير: " وهناك شيء من الغموض في بعض القصائد؛ ولكنني لست شاعرا رمزيا وقد كنت مدفوعا إلى أن أغشي بعض قصائدي بضباب خفيف، وذلك لأنني كنت متكتما، لا أريد أن يعرف الناس كل شيء عن حبي الذي كانت كل قصائد هذا الديوان صدى له؛ فقد كانت "موحية" هذا الديوان، تغضب أشد الغضب، إذا أنا ذكرت شيئا عن قبلاتنا ومواعيدنا، وكثيرا ما مزقت بعض القصائد التي كانت تشير إلى شيء تأبى هي أن يعرفه الناس."[٣٣]

لقد صيغت أفعال الكلام في النص السابق استفهاما متضمنا عن الغموض في شعر السياب، فجاء الجواب إقرارا بهذا الغموض، كما تضمن قول المرسل/ السياب بنفي انتسابه للرمزيين، سؤالا مفاده: هل مرد الغموض في شعر المرسل/السياب متأت من إيمانه بمذهب الرمزيين؟ ولما كان الجواب بالنفي، إحتاج المرسل أن يبين مرجعيات هذا الغموض، فكان التسويغ ذا علاقة ومناسبة بموضوع الحوار الذي هو موقع الغموض في شعر السياب، ومصادره، وقد تضمن الخطاب أفعالا كلامية من قبيل: (كنت مدفوعا، لا أريد أن يعرف الناس، كانت موحية)، وهي أفعال ملفوظة بكيفية تضمن التواصل المثمر والمفيد لأنها صادقة، وواضحة، وبعيدة عن اللبس والغموض.

وقد تأتي دعوة المرسل/الشاعر شاملة تخاطب القلب والعقل معا، فتجمع بين قواعد التعامل وقواعد التواصل التي منها مبدأ التعاون، كما يظهر جليا في رسالة نازك الملائكة إلى الشاعر الناشئ:" وأما أنت يا شاعر فقد وهبك الله قدرة الرؤية، فأنت تلمح الخافي، والمبهم والبعيد، ومن ثم وقعت عليك رسالة البيان والتعبير والكشف، تلين بها النفوس الغليظة، وتكشف الحجب عن العيون التي تنظر ولا ترى، وتبذر في القلوب والعقول بذور الخير والمحبة والعمل والقوة"[٣٤]. لقد شكّل مبدأ التّعاون في نص الملائكة أساس عمليّة التّواصل والتّخاطب؛ بربطه أطراف الحوار ربطا تحقّق فيه التّفاهم بينهم بطريقة منطقيّة، هي الاستدلال؛ فالشاعر العربي الناشئ الذي تحاوره الملائكة، حلّت عليه بركة الربّ، فتهيأ له ما لم يكن لسواه، من (لمح البعيد الخافي، وكشف الحجب، وإبذار الخير والمحبة في القلوب)،

وقد شكل هذا مبدأ اجتماعياً تحكّم في العلاقات الاجتماعيّة للمتكلّمين من خلال الاستعمال الحرفي للّغة (استلزام عرفي عام)، وأخلاقي لما يستوجبه من مبادئ أدب الحوار[٣٥]، فعملية التّخاطب تحتاج إضافة إلى مبدأ التّعاون قدرا من التّأدّب الذّي يؤطّر هذا التّعاون ويضمن سيرورته. وتظل قوة علاقة الشاعر بقارئه مدعاة لحضور مبدأ التأدب من جهة أخرى، ولربما بأكثر كثافة من كل قواعد التخاطب، فقد راعى الشاعر بدر شاكر السياب، قاعدة التعفف بلجوئه إلى طريقة الإقناع بدل الإكراه، في مقدمة ديوانه أساطير محاوراً المرسل إليه/القارئ. وقد تحقق مبدأ التعفف بابتعاد المرسل/السياب عن الأمر المباشر، واستبداله بأسلوب التوكيد، في قوله: "وقبل أن أختم هذه المقدمة، لا بد من التعرض لمشكلة كثيرا ما ثار حولها الجدل، تلك هي رسالة الفنان في المجتمع. أنا من المؤمنين بأن على الفنان ديناً يجب أن يؤديه لهذا المجتمع البائس الذي يعيش فيه. ولكنني لا ارتضي أن نجعل الفنان وبخاصة الشاعر– عبدا لهذه النظرية، والشاعر إذا كان صادقا في التعبير عن الحياة في كل نواحيها، فلا بد من أن يعبر عن آلام المجتمع وآماله دون أن يدفعه أحد إلى هذا"[٣٦]، كما راعى المرسل قاعدة التخيير، مراعاة ترك فيها للمرسل إليه حرية اتخاذ القرار فيما يخص إيمانه بكون الفن للفن أو الفن للمجتمع، وختم حواره بقوله: والشاعر إذا كان صادقا في التعبير عن الحياة في كل نواحيها، فلا بد من أن يعبر عن آلام المجتمع وآماله دون أن يدفعه أحد إلى هذا.

وتتجلّى قاعدة التودد بكلّ وضوح من خلال استعمال الشاعر الأساليب والصيغ التي كشفت أكثر من ذي قبل عن رغبة الشاعر في المحافظة على علاقته بالمرسل إليه. ففي الحوار المتخيل الذي تضمنته مقدمة ديوان قرارة الموجة، يتخذ الخطاب شكل الحوار الآتي:

" الثانية: إنهم يسألونني عنك، أيتها الصديقة القديمة..

الأولى: (في لهفة) أو ليس في وسعك أن تردي عليهم؟

...

الثانية: يا أختي! أما كان الأفضل أن تنشري لهم الشعر الذي نظمته وأنت في قمة الموجة؟

أنت تدرين أنهم يتهمونك بالتشاؤم.

الأولى: (في ازدراء) القمة؟ لاشيء على القمة إطلاقا. إني أكتب قصائد باردة حين أبلغها. وما القمة بعد؟ إنها بداية الانحدار. أما القرارة فليست إلا الاستجمام الذي ينطوي على بذرة التحفز إلى الانبثاق الحار والصعود إلى القمة التالية.

الثانية: سيقولون حين يسمعونك: ما قيمة الصعود إن كانت القمة نفسها باردة؟

الأولى: مهما يكن فإن عنواني (قرارة الموجة) متفائل" (٣٧).

وأبرز الصيغ التي تتجلى فيها قاعدة التودد –كما يتبين في مقدمة ديوان قرارة الموجة– هي: (أيتها الصديقة القديمة، يَا أختي)؛ وكذلك العدول عن الأمر المباشر إلى أسلوب الحجاج الذي ظهر بين الثانية والأولى، وهما ذواتا المرسل/الملائكة، والعدول إلى الحجاج جاء استمالة للقلب والعقل معا. كما يبدو استفادة المرسل من مبدأ التوجه، وهو مبدأ تداولي، الغرض منه ضبط الخطاب، ويرتكز على صيانة وجه الغير كما صاغه "براون" و "ليفنسون". إن الشاعرة نازك الملائكة عدلت عن الخطاب المباشر إلى الخطاب غير المباشر، وأنشأت حوارا مع متلق افتراضي، وهذا المتلقي يطرح سؤالا عن نشر هذه المجموعة الشعرية، والغاية من وراء اختيار العنوان ، كما يطرح قضية تحوّلات الذات الشاعرة وتبدلاتها، ولعل المرسل/الملائكة قد رمت من وراء صياغة خطابها على وفق هذه الكيفية إلى تحقيق هدفين أساسيين: إما إضافة معلومة غير متوفرة في مخزون المخاطب، أو تعويض إحدى معلومات المخاطب بمعلومة يعتقد المتكلم أنها المعلومة الواردة، فالمرسل يتوخى التأثير في المرسل إليه، وإحداث تغيير في موقفه الفكري والعاطفي، ولتحقيق ذلك يستعين بإستراتيجية تداولية تعرف بإستراتيجية الإقناع. ويمكن عن طريق هذا النص تحديد مجال الحوار بين الشاعرة والمتلقي، فالشاعرة تريد من المتلقي أن يشاركها المراحل التي مر بها هذا الأثر الشعري.

وفي مقدمة ديوانها (مأساة الحياة وأغنية الإنسان) تبين نازك الملائكة تضامنها مع المتلقي عبر أسلوب التأدب في الحوار، تقول: " أما القصيدة الأولى فقد نظمتها عام ١٩٤٥، وكان عمري إذ ذاك اثنين وعشرين عاما ولم يكن ديواني الأول قد ظهر إلى الوجود أو طبع، وكنت إذ ذاك أكثر من قراءة الشعر الانكليزي، فأعجبت بالمطولات الشعرية التي نظمها الشعراء، وأحببت أن يكون لنا في الوطن العربي مطولات مثلهم."[٣٨] فهي تبين تأثرها بالآداب الإنكليزية، وخاصة المطولات الشعرية عندهم عن طريق الإشارة إلى الزمن (إذ ذاك)، وهو الزمن الذي كتبت فيه الشاعرة هذه المطولة. وعن طريق ضمائر التكلم (التاء، والياء)، وعن طريق الأفعال الكلامية المسندة إلى تاء التكلم (أحببت، بدأت، اتخذت). وتشارك المتلقي فكرة الإلحاد والتشاؤم التي عاشتها في شبابها مستعملة ضمير التكلم (أنا)، وضمير (الياء)، وأيضا اسم الإشارة (ذلك)، لتحقيق الأثر السلبي، كما يظهر في قولها: "والواقع أن تشاؤمي قد فاق تشاؤم شوبنهاور نفسه، لأنه –كما يبدو– كان يعتقد أن الموت نعيم؛ لأنه يختم عذاب الإنسان، أما أنا فلم تكن عندي كارثة أقسى من الموت، كان الموت يلوح لي مأساة الحياة الكبرى، وذلك هو الشعور الذي حملته من أقصى أقاصي صباي إلى سن متأخرة"[٣٩]. وثم العودة إلى التفاؤل والإيمان لتحقيق الأثر الإيجابي: "وفي عام ١٩٥٠ كان أسلوبي الشعري قد تطور تطوراً كبيراً عمّا كان أيام نظمي للمطولة، فأصبحت مواردي الأدبية أغزر، وأسلوبي أكثر صوراً وثقافتي أغنى، فلم أعد راضية عن (مأساة الحياة) ولذلك قررت أن أعيد نظمها بأسلوبي الجديد فكانت صورتها الثانية."[٤٠]

وكما بدأت بهذه الاستراتيجية ختمت حديثها بها "واليوم إذ أقدم الصور الثلاثة إلى المطبعة، أحس أنني أقدم عملاً أدبياً متكاملاً؛ لأن الشعر قد يقرأ لمجرد كونه شعراً، وهذه المطولة بصورها الثلاث تدل على خط التطور في شعري ما بين السنوات العشرين من ١٩٤٥ إلى ١٩٦٥". هذا فيما يتعلق بقواعد التواصل، أما قواعد التعامل فقد احترمت الشاعر قاعدة القصد، وقاعدتي الصدق والإخلاص، وهي قواعد في مجملها تحقق التقرب الصادق، وتجعل الاستراتيجية التضامنية واضحة في خططها وأساليبها.

ان الإستراتيجية التضامنية بوصفها بنية خطابية قصدية لها حضورها في سياق عملية التفاعل، والتواصل بين المتخاطبين؛ لينظر من خلالها إلى الملفوظات باعتبارها أفعالاً اجتماعية، تقوي العرى الوثيقة بين المتخاطبين؛ المهيمن اللساني التداولي فيها يمكن تقيده في: التكافل، الاتفاق، الاتحاد، الاجتماع، التأثير. إن تنزيل هذا الفهم للتضامن في المجال الخطابي يظهر في صورة حرص المتخاطبين على إنشاء تواصل حميمي بينهم؛ فالتضامن في السياق التخاطبي يجسد الإرادة الحسنة من الطرفين أو على الأقل من طرف واحد في بناء جسور المودة والمحبة بينهما لأجل أغراض ومقاصد معينة. إن الإستراتيجية التضامنية بوصفها: آلية خطابية حركية سلوكية توظف ضمن المواقف التواصلية؛ تقوم على المواءمة والانسجام والألفة، وتهدف إلى توطيد وتثبيت علاقة مع طرف ما لغرض ما.

إن التعرف على الاستراتيجية التضامنية ممارسة خطابية عند المتخاطبين، يمكن أن يتم بالوقوف على جملة من المبادئ والأسس التي ترتكز عليها وتوصف بها ومن ذلك :مبدأ المصلحة المشتركة: مبدأ أساس ينطلق منه المخاطب، وهو (منهج المصلحة المشتركة، ومبدأ التكامل والانسجام: وذلك بأن يعمل المخاطب على أن يشعر المرسل إليه بأن كلاً منهما مكملاً للآخر في كل شيء، بل يجعل من مسارهما، وهو يعتمد أساسا على التنازل على الرتبة الاجتماعية ونكران الذات. ومبدأ التساوي والتكافؤ أو الدونية وعدم الاستعلاء: يؤسس المخاطب تفاعله انطلاقا من هذا المفهوم في الحوار كمبدأ مهم أيضا في عملية التواصل؛ وذلك يوضح جانبا مهما وهو السعي إلى انتفاء وإلغاء محدد السلطة فيها. ومبدأ التشابه والتماثل: يعمل المخاطب على تثبيت قرائن التشابه والترابط التي تجمعه بالمرسل إليه؛ وقد تكون هذه الروابط: روابط العمل أو العائلة أو الدين وما إلى سوى ذلك، مع التأكيد على حالات التماثل الشخصية في الجوانب الحياتية المتعددة؛ العلمية، النفسية، الثقافية، الاجتماعية وغيرها.

ترتسم هذه الاستراتيجية أفقاً خطابياً انطلاقاً من بواعث متعددة، تتجاوز حدود تحقيق ايجابية التواصل الفعال بين المتخاطبين إلى إحداث التأثير في السلوك العام من منطلق السلوك اللغوي الفردي؛ الذي يباشره المخاطب من خلال أساليب التلطف والكياسة واللين في الكلام، وهو من منظور خبراء اللسانيات الاجتماعية ذلك الأسلوب الحواري الذي يوظفه المتحاورون لتثبيت عجلة الحوار" من خلال تلك الأدوات الحوارية، يمكن أن نتصورها في مثل: معذرة،

استسمحك، لا اختلف معك، التي تمنع اصطدام كلام الأطراف بعضها ببعض مما يؤثر سلبا في الحوار وفي علاقة أطرافه " .

ولعل أهم ما يستعمل منها في بناء علاقة التضامن هي: العلم: وهو أداة لغوية تتفاوت من حيث تجسيدها للاستراتيجية التضامنية في الخطاب، وأبرزها الاسم ثم الكنية ثم اللقب على حسب ترتيبها في دلالة التضامن. وألفاظ التحية التي يتم انتقاؤها من المعجم اللغوي، فتوظف في الخطاب للدلالة على التضامن[٤١]، كما تعد مؤشراً ومعياراً على الكفاءة اللغوية للمتكلم الذي يستخدمها للتقرب من المتلقي. والإشاريات: تعد الضمائر من أهم الوسائل الإشارية في الاستراتيجية التضامنية، إذ يستعملها المتكلم لتأسيس علاقة اجتماعية حميمة تربطه بالمتلقي، وتدل على انتمائها إلى جماعة واحدة، وعلى الاتفاق حول رأي واحد، فضلا عن استعمالها للدلالة على وظيفتها النحوية[٤٢]، والتصغير: ووظيفته الأساس للدلالة على القلة أو الصغر أو التحقير أو التحبب، إلا أنها تستعمل أيضا بين المتخاطبين من باب الألفة والمودة والابتعاد عن الرسميات. لهذا يلجأ المتكلم إلى استغلال هذه الوسيلة في التضامن مع المتلقي قصد التقرب منه والتواضع له، فهي تخفف من حدة الأفعال اللغوية خصوصا أفعال الطلب مثلاً، وكذلك تخف من تهديد التوجيه. ويعد استعمال هذه العلامة ضربا من التأدب غير الرسمي، فهو يقوي درجات الصداقة، بل قد يؤسس لها

الهوامش:

١-أشارت (روبين لاكوف) إلى مبدأ التأدب، في مقال لها ذائع، بعنوان (منطق التأدب) ذكرت فيه أنه إضافة إلى قواعد التبليغ، التي يقتضيها السياق اللغوي، هناك ضوابط أخلاقية أخرى لا بدّ من مراعاتها تسهم في تحقيق الإفادة المقصودة، وفرّعت عن مبدأ التأدب ثلاث قواعد تهذيبية، هي: التعفف، والتشكك، والتودد. ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص٢٤٠-٢٤١.

٢- استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص٢٥٨.

٣-ينظر: الاستراتيجية التضامنية التبجيلية وآلياتها التخاطبية عند ابن القيم الجوزية من خلال محاورة موسى لفرعون، لعجالي محمد، مجلة جسور المعرفة: الجزائر، المجلد: ٣، العدد: ١١، ص٨٣.

٤-اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص٢٢٤.

٥-اللغة والخطاب، ٢٠٠١، ص٥٠.

٦-اقترح جاكوبسون خطاطة تضم العناصر الستة للتواصل اللغوي اللفظي، بضمنها قناة الاتصال، وهي (الصلة النفسية بين المرسل والمرسل إليه)، أما العناصر الأخرى فهي: المرسل (مشفر الرسالة)، والمرسل إليه (متلقي الرسالة أو مشفّرها)، والرسالة، والشفرة (التي تدل الرسالة على أساسها)، والسياق (المرجع الذي تحمل إليه الرسالة). ينظر: علم اللغة المعاصر: نظرية وتطبيقا، ص٧٨.

٧- نظرية التواصل في ضوء اللسانيات الحديثة، ص٧١

٨-ينظر: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص٤٨-٤٩.

٩-استراتيجيات الخطاب في محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني، معمر بن الغويني، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، المركز الجامعي لتامنغست – الجزائر: الجزائر، المجلد: ٩، العدد: ١، ٢٠٢٠، ص ٥٩٢.

١٠-معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، ص٢٢٥.

١١-ينظر: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص٢٣٤.

١٢-ينظر: الإستراتيجية التضامنية في سورة طه: دراسة تداولية، ، ص٢٧.

١٣-أساطير، بدر شاكر السياب، المقدمة، ص٨.

١٤-السابق نفسه.

١٥-إعادة نظر واجبة (بيان)، عبد الوهاب البياتي.

١٦-ديوان نازك الملائكة، المجلد الثاني، ديوان شظايا ورماد، المقدمة، ص٨.

١٧-استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص٣١٩.

١٨-ديوان نازك الملائكة، المجلد الثاني، ديوان شظايا ورماد، المقدمة، ص٨-٩

١٩-تقديم السياب لمختارات شعرية، ص١١٢.

٢٠-تجربتي الشعرية، عبد الوهاب البياتي، ص٤.

٢١-ينظر: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص٢٦٣.

٢٢-ينظر: التداولية، جورج يول، ص١٠٦.

٢٣-الإستراتيجيات التخاطبية في السنة النبوية، ص٥٤٣.

٢٤- P Brown & S levinson," universal in language usage", politeness phenomena, p 129.

نقلا عن: تحليل استراتيجية خطابات رئيس الجمهورية خلال نهاية العهدة الثالثة،، ص,٧٨

٢٥-ديوان نازك الملائكة، المجلد الثاني، ديوان شظايا ورماد، المقدمة، ص١٢.

٢٦-ينظر: نظرية المعنى في فلسفة بول جرايس، ص١٦.

٢٧-ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص٣٢.

٢٨-ينظر: النّظريّة البراجماتيّة اللّسانيّة، ص٨٩-٩٠.

٢٩-التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ص٥٦-٥٧.

٣٠-ديوان نازك الملائكة، المجلد الثاني، ديوان قرارة الموجة، المقدمة، ص٢١١-٢١٣.

٣١-رسالة إلى الشاعر العربي الناشئ، ص٣٩-٤٠.

٣٢-الاقتضاء في التداول اللساني، عادل فاخوري، مجلة عالم الفكر: الكويت ، المجلد: ٢٠ ، العدد: ٣، ، ١٩٨٩، ص١٦٤.

٣٣-أساطير، بدر شاكر السياب، المقدمة، ص٧.

٣٤-رسالة إلى الشاعر العربي الناشئ، نازك الملائكة، ص٣٥.

٣٥-ينظر: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص٩٦.

٣٦- أساطير، بدر شاكر السياب، المقدمة، ص,٧

٣٧-ديوان نازك الملائكة، المجلد الثاني، ديوان قرارة الموجة، المقدمة، ص٢٠٧.

٣٨-ديوان نازك الملائكة، المجلد الأول، ديوان مأساة الحياة وأغنية للإنسان، المقدمة، ص٦.

٣٩-ديوان نازك الملائكة، المجلد الأول، ديوان مأساة الحياة وأغنية للإنسان، المقدمة ، ص٧.

٤٠-السابق، ص٩-١٠.

٤١-ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص٢٤١.

٤٢-ينظر: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص٣٠٩

المصادر:

- أساطير، بدر شاكر السياب، النجف: منشورات دار البيان، مطبعة الغري الحديثة، ١٩٥٠م.
- استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، عبد الهادي الشهري، بيروت- لبنان: دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.
- تحليل الخطاب، براين بالتريدج، ترجمة: عبد الرحمن بن عبد الله الفهد، الرياض: دار جامعة الملك سعود للنشر، الطبعة الثانية، ٢٠١٨ م.
- تحليل الخطاب، ج.ب. براون، وج. يول، ترجمة: محمد لطفي الزليطني، ومنير التريكي، الرياض: النشر العلمي والمطابع-جامعة الملك سعود، ١٩٩٧م.
- التداولية اليوم علم جديد في التواصل، آن روبول، جاك موشلار، ترجمة: د. سيف الدين دغفوس، د. محمد الشيباني، مراجعة: د. لطيف زيتوني، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ١٩٩٨م.

- التداولية، جورج يول، ترجمة: الدكتور قصي العتابي، الرباط: الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.
- ديوان نازك الملائكة، نازك الملائكة، المجلد الثاني، بيروت: دار العودة، ١٩٩٧م.
- كتاب السياب النثري، جمع وإعداد وتقديم: حسن الغرفي، فاس: منشورات مجلة الجواهر، ١٩٨٦م.
- لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد خطابي، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي،١٩٨٨ م.
- اللغة والخطاب، عمر أوكان، المغرب: إفريقيا الشرق، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرّحمن، بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٦،
- معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، أحمد زكي بدوي، بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٧٨م.
- النص والخطاب والاتصال، محمد العبد، القاهرة: الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي،٢٠١٤م.
- النّظريّة البراجماتيّة اللّسانيّة، محمود عكاشة، القاهرة: مكتبة الآداب، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م.
- نظرية المعنى في فلسفة بول جرايس، صلاح إسماعيل، القاهرة: الدار المصرية السعودية، ٢٠٠٥م.

ثانيا: ـ الدوريات

- تجربتي الشعرية، عبد الوهاب البياتي، مجلة الآداب، بيروت، العدد: ٣، مارس، ١٩٦٦.
- تقديم السياب لمختارات شعرية، ضمن أخبار وقضايا، مجلة شعر: لبنان، العدد: ٣، ١ يونيو ١٩٥٧م.
- رسالة إلى الشاعر العربي الناشئ، نازك الملائكة، مجلة الأقلام: العراق، العدد: ١، ١٩٦٤.

ثالثا: الرسائل والأطاريح الجامعية

- الاستراتيجية التضامنية في سورة طه: دراسة تداولية، خديجة رحومة، وكوثر شكيمة، ونور الهدى بته، مذكرة تخرج مقدمة لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي، تخصص: لسانيات عامة، كلية الآداب واللغات، جامعة آلشهيد حمّه لخضر– الوادي، الجزائر، ٢٠١٩–٢٠٢٠م.
- تحليل استراتيجية خطابات رئيس الجمهورية خلال نهاية العهدة الثالثة، ريغي أسماء، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه نظام جديد في علوم الإعلام والاتصال، تخصص اللغة، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم: الجزائر، ٢٠١٦–٢٠١٧م.

رابعا: شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)

- إعادة نظر واجبة (بيان)، عبد الوهاب البياتي، موقع جهة الشعر:

http://www.jehat.com/ar/BayanatShe3reya/Pages/A.Wahab.html